المجلة المغاربية للدراسات التاريخية والاجتماعية – جامعة سيدي بلعباس
ISNN : 2170-0060 EISSN : 2602-523X
المجلد 07 -- العدد 02 -- ديسمبر 2016 ص 61 - 72

الدكتور أبو القاسم سعد الله رائد المدرسة التاريخية الجزائرية وباعثيها

Dr. Abu al-Qasim Saadallah is the pioneer and leader of the Algerian historical school

د بن الشيخ حكيم Dr. Bencheikh Hakim Drbencheikh2016@gmail.com	تاريخ حديث ومعاصر	كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة يحي فارس - المدية - الجزائر

DOI :

ملخص

الأستاذ الدكتور سعد الله بلقاسم بن أحمد بن علي بن محمد بن سعد الذي يعتبر أحد هؤلاء بل و من رواد المدرسة التاريخية و الأدبية والفكرية فقد غذَّاها بعلمه ورعاها وشملها باهتماماته، إذ إنه من الأقلام التي ظهرت في فترة مبكرة في الخمسينيات على صفحات مجلة الآداب البيروتية من أجل الدفاع، يومئذ عن الجزائر وقضيتها العادلة، يعتبر الدكتور أبو القاسم سعد الله واحد من المفكرين الذين عرفتهم الجزائر في مرحلتين فالأولى في فترة الاستعمار و الثانية أثناء فترة الاستقلال ساهمت أفكاره و كتاباته في تحريك آلية الكتابة التاريخية النقدية باتجاه تفعيل القضية الجزائرية من جهة ثم في الرد على كثير من ادعاءات المؤرخين الأوروبيين الذين تطاولوا على تاريخ الحقيقة التاريخية في الجزائر بالتحريف تارة و التزوير و التلفيق و حبك الدسائس تارة أخرى.

كلمات مفتاحية: سعد الله؛ رائد المدرسة التاريخية؛ الكتابة في الجزائر؛ النقد التاريخي

Abstract

Dr. Saad Allah Belgasem Bin Ahmed Bin Ali Bin Mohamed Bin Saad, who is considered one of the pioneers of the historical, literary and intellectual school, has fed it with his knowledge, caring for and comprehensive attention. He is one of the writers that appeared in the early 1950s on the pages of the Beiruti Literature magazine for Defense. On that day and its just case, Dr. Abu Dr. The second is during the period of independence, his writings and ideas contributed to the historical writing mechanism in the direction of activating the Algerian issue on the one hand, and then in response to the claims of many European historians who dared to delve into the history of historical truth in Algeria, at times, by distortion, forgery, and dogmatism.

Keywords: Saadallah; pioneer of the historical school; writing in Algeria; historical criticism.

- **أهمية الموضوع:** لقد رأيت انه من واجب الباحث و المؤرخ الوقوف بتمعن و تفحص لأعلام هذه الأمة، لاسيما الذين قدموا الكثير لأجل النهوض بتاريخها وتراثها وفكرها، والأستاذ الدكتور سعد الله بلقاسم بن أحمد بن علي بن محمد بن سعد الذي يعتبر أحد هؤلاء بل و من رواد المدرسة التاريخية و الأدبية والفكرية فقد غذَّاها بعلمه ورعاها وشملها باهتماماته، وممالا شك أنه من الصعب التحدث عن مثل هذه الشخصيات البارزة المتعددة الجوانب، فهو من المؤرخين الجزائريين الذين اكتسبت أعمالهم رصيدا طيبا في تاريخ الجزائر، وهو أيضا شخصية أدبية ثقافية فكرية نشيطة على الساحة القطرية والعربية، إذ إنه من الأقلام التي ظهرت في فترة مبكرة في الخمسينيات على صفحات مجلة الآداب البيروتية من أجل الدفاع، يومئذ عن الجزائر وقضيتها العادلة، ومازال يدافع عنها إلى اليوم،فهو ينتمي إلى مدرسة المؤرخين الجزائريين الذين ينطلقون من الانتماءات الوطنية والعربية الإسلامية للشعب الجزائري ويرفضون المفاهيم التي درج عليها معظم الكتاب الفرنسيين أو بعض المتشبهين بهم من الجزائريين في نظرتهم إلى الجزائر شعبا وثقافتا وتاريخا؛ ولهذا أسهم مساهمة فعالة في إرساء قواعد المدرسة التاريخية الجزائرية من خلال تدريسه، وإشرافه على العديد من الرسائل الجامعية، وكذلك بكتاباته وأبحاثه وآراءه حول مختلف القضايا الوطنية، مما جعله يترك ملامح وبصمات واضحة على هذه المدرسة، وبذلك لقب بـ" مؤرخ الأجيال" (1).

فقد تألق في تدوين ماضي الجزائر و كان بحق باحثا عن الرسائل و المخطوطات النفيسة و الوثائق القيمة بين رفوف الخزائن و دهاليز الزوايا في داخل الوطن و في خارجه، فضلا عن المتاحف و المكتبات و دور الأرشيف، فلم يكن مكوثه بأرض الوطن إلا قليلا لكثرة المهام و طبيعة التنقلات.

إذن يعتبر الدكتور أبو القاسم سعد الله واحد من المفكرين الذين عرفتهم الجزائر في مرحلتين فالأولى في فترة الاستعمار و الثانية أثناء فترة الاستقلال، ساهمت أفكاره و كتاباته في تحريك آلية الكتابة التاريخية النقدية باتجاه تفعيل القضية الجزائرية من جهة ثم في الرد على كثير من ادعاءات المؤرخين الأوروبيين الذين تطاولوا على تاريخ الحقيقة التاريخية في الجزائر بالتحريف تارة و التزوير و التلفيق و حبك الدسائس تارة أخرى.

الإشكالية: أوردت إشكالية عالجت في مضمونها طبيعة الكتابات التي تناولها الدكتور أبو القاسم فكان الحديث عن تأثير الرجل حول واقع الكتابة ذات الصبغة التاريخية في الجزائر خاصة، ثم طبيعة الكتابات الأوروبية و ميكانيزمات الرد عليها و تصحيح اللبس فيها عامة.

- **منهجية الدراسة:** اعتمدت المنهج التاريخي الوصفي، ثم المنهج المقارن، و كذا منهج دراسة الحالة، فضلا عن استعانتنا ببعض المصادر والمراجع التي تطرقت إلى هذه الشخصية من جوانب متعددة، و لعل هدفي من هذه الدراسة هو أن أبين حقيقة المثقفين (2) الذين يؤمنون بفلسفتهم وحريتهم السياسية و العلمية، والذين التزموا بمبادئهم ودافعوا عنها وحاولوا تجسيدها في الواقع، لذلك فإنني عمدت إلى خطة عمل منهجية تشمل العناصر التالية:

- تمهيد

1- نبذة مختصرة من حياة الدكتور سعد الله

2- دوره في بعث المدرسة التاريخية الجزائرية

3- النظرة النقدية للدكتور أبو القاسم سعد الله لما كتب عن تاريخ الجزائر الحديث و المعاصر

1- نبذة مختصرة من حياة الدكتور سعد الله:

ولد الدكتور أبو القاسم سعد الله (3) في البدوع بجوار مدينة قمار الغربية بوادي سوف، ولا يذكر أهله سوى أنه ولد في صيف شديد الحرارة، عام ترميم الجامع الكبير ومدرسته بقمار،أي عام 1930م أو 1931م، وكان أهله من أوائل الفلاحين الذين ابتدعوا البدوع فعمروها بغراسة النخيل لعذوبة مائها." و مما قاله عن نفسه أن أبوه قد غرسه كغرس النخيل، فكان غرسا طيبا، ولد مع ميلاد ثمار النخيل، و يذكر عند ميلاده كان أهله لا يفترشون سوى الرمال ولا تظلهم غير سقائف من جريد النخيل.

دخل الطفل جامع البدوع عندما بلغ سن الخامسة، فحفظ القرآن الكريم والمتون، ولاشك أنه سمع بزيارة الشيخ عبد الحميد بن باديس والوفد المرافق له من العلماء إلى وادي سوف، وإلى مدينة قمار بالذات شتاء 1937م، وما خلفته هذه الزيارة من أثر طيب في نفوس الناس عامة ونفوس النشء خاصة.

وحينما اشتد ساعده فرح به أبوه ليساعده ،حيث كان في حاجة ماسة إليه في أشغال الفلاحة والزراعة، غير أن الأقدار قد وجهته توجيها آخر، وأن طموح الولد كانت

أكبر من ذلك، وهي مواصلة تعليمه، لهذا سمح الأب لابنه وتركه يسافر إلى تونس ليتابع دراسته بجامع الزيتونة المعمور عام 1947م.

وكانت مدينة تونس العريقة أول حاضرة حل بها فأدخلته عالم العواصم قواسم، بما فيهم من تناقضات، غير أن تونس علمته أصول الدين الإسلامي الحنيف، وروافد الأدب العربي الراقي، فاغترف من مناهل المعرفة و نهل من حياض العلم الصافي، حتى تحصل على شهادتي *الأهلية* و*التحصيل* أي ما يعادل اليوم تقريبا شهادتي التعليم المتوسط والثانوي أو (الباكالوريا)، رجع الأستاذ سعد الله إلى أرض الوطن، فعينته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في وظيفة معلم بالمدرسة العربية بالحراش في السنة الدراسية 1955/1954م، فاستأنس بزميله وابن منطقته الشيخ الأزهري، غير أن فاجعته كانت كبيرة عندما اكتشف غربته في وطنه الذي اغتصبه الأجنبي وهذا باحتكاكه المباشر بالاستعمار الفرنسي حيث لامسه بوعي ثاقب، غير أن الأقدار – مرة أخرى – قد فتحت له باب آخر للعلم والمعرفة، و منحته هذه المرة جمعية العلماء بمنحة دراسية إلى مصر، فالتحق بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة، وتخرج منها سنة 1959م بشهادة اللسانس في الأدب العربي والعلوم الإسلامية، وبعد عام حصل منها على سنة أولى ماجستير في النقد الأدبي، ولهذا بدأ يحضر في أطروحة الماجستير، حول "محمد العيد آل خليفة، رائد التجديد في الأدب الجزائري الحديث"، غير أنه لم يناقشها إلى اليوم،إلا أنه نشرها في كتاب هو الآن بين أيدينا، إذن عاش سعد الله في القاهرة مدة طويلة أثرت فيه لأنها كانت مركز إشعاع فكري وسياسي في ذلك العهد، جعلته يؤمن بالتاريخ الواحد والمصير المشترك للأمة العربية، كما عرفته بشرائح الأدب فاختلط بها وناقش ونشر واكتشف ذاته بين الذوات الأخرى،فنشر له في القاهرة سنة 1957م أول العنقود تحت عنوان" النصر للجزائر " مع مقدمة لأحمد توفيق المدني، رئيس مكتب القاهرة لوفد جبهة التحرير ،عند "دار الفكر" ذات ميول يسارية، باعتبار موضوع الثورة الجزائرية يهمها، فشجعت الشاب الجزائري الثائر مع الثوار بفكره وقلمه.

و من نشاط الأستاذ سعد الله في القاهرة أنه كان عضوا نشيطا في فرع القاهرة للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين، الذي كانت تشرف عليه جبهة التحرير الوطني(4).

وقد مثل هذا الاتحاد في عدة مؤتمرات، منها المؤتمر التأسيسي الاتحاد العام للطلبة العرب واتحاد طلاب فلسطين بالقاهرة سنة 1958م. وكل هذا النشاط مدون في كتابه"مسار قلم " الذي صدر مؤخرا ،عن دار الغرب الإسلامي،بيروت، وهو عبارة عن يوميات طالب جزائري في القاهرة. " ... ورغم أن الشكل الظاهري لتلك الأحداث كان طلابيا، فان المعنى البعيد لها كان سياسيا، وقد أثر كل ذلك في مجرى حياته" (5)، وفي سنة 1960م اشتد لهيب الثورة الجزائرية المباركة،وفجأة استدعته جبهة التحرير الوطني إلى تونس،وكان يعني هذا الاستدعاء في ذلك الوقت عند الطلبة هو أحد الأمرين: إما التجنيد في صفوف جيش التحرير الوطني، والدخول إلى المعارك على أرض الوطن ،وإما الإعدام لخروجه عن الخط الثوري؛غير أن المفاجأة كانت سارة ،وهي الأمر بالسفر في بعثة دراسية إلى الولايات المتحدة الأمريكية، فالتحق بجامعة "منيسوته "التي حصل منها على الدكتوراه في التاريخ الأوروبي الحديث والعلوم السياسية سنة 1965م. و هو الذي كان يقول: (... إن الجزائر كانت في ثورة حياة أو موت، وقد كنت اعتقد بحرارة أن أقل ما يمكن أن أخدم به الوطن في تلك اللحظات العصيبة هو أن انجح في مشروعي..).(6)

2- إسهامه في تأسيس المدرسة التاريخية الجزائرية:

ولست أدعي إن قلت بأن الدكتور الراحل كان قد أشار إلى أن أول من وضع صمات هذه المدرسة كان جيل ما قبل الاستقلال و قد أشار في كثير من المناسبات إلى محمد الميلي و أحمد توفيق المدني و غيرهم من المؤلفين الموسوعيون الذين أسهموا في تقصي الحقيقة التاريخية لاسيما التي كان لها بعدا وطنيا، هم أول من وضع آليات هذه المدرسة .

هي مدرسة أستاذية قبل أن تكون مدرسة تاريخية علمية تستند في مفاهيمها إلى تمحيص وتحليل الوقائع على اعتبار أن جل المتخرجين من أقسام التاريخ (7) تلقوا دروسا وتوجيها وتحليلا من قبل المرحوم سعد الله، فهو بحق قد أسهم في بناء جيل من المؤرخين والباحثين، حيث امتازت كتاباته بالواقعية والجدية (جديدة) والجرأة في التحليل، و لست أدعي إن قلت أنه قد اجتمع في شخص المفكر التبصر العلمي و التواضع و العلم الغزير .

فلم نكن قبل سعد الله نفقه إذا استثنينا طبعا المصادر و الدراسات الغربية ذات التوجه التغريبي في التاريخ نفقه معنا للكتابة النقدية الفاحصة للتاريخ الوطني الذي امتزجت فيه الحقيقة التاريخية بالزيف و الأباطيل من قبل المدارس و الأقلام الأوروبية، كنا ندرس تاريخ الجزائر من جهة واحدة ومن زاوية منفردة، أي من وجهة نظر المراجع و المصادر الغربية و لا سيما الفرنسية ذات التوجه العنصري و لا جرم أن آثاره الفكرية ومقالاته و أشعاره (8) قد أعطت لنا صورة واضحة على مدى عمق ثقافة هذا الرجل وتنوعها.

و كذلك علينا كباحثين أن لا تنسى كثير من الأساتذة الذين وافتهم المنية و الذين شكلوا في حياتهم مدارس تاريخية رائدة أمثال:

بلحميسي مولاي، هلال عمار، مياسي إبراهيم يحي بوعزيز، محمد قنانش و محفوظ قداشو الدكتور ناصر الدين سعيدوني وغيرهم ممن كان لهم الفضل في بعث هذه المدرسة المتناسقة علميا و فكريا و منهجيا و أكاديميا.

و أبو القاسم سعد الله قامة من قامات الجزائر الشامخة، سخر حياته في سبيل البحث في تاريخ الجزائر وترك وراءه إرثا ثمينا تمثل في عشرة أجزاء في تاريخ الجزائر الثقافي (9) و أربعة أجزاء في الحركة الوطنية وخمسة أجزاء في أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر(10).

رغم أن المثقف في نظر المرحوم هو الإنسان المتعلم الملتزم بقضاياه المصيرية و المنافح عن أمته عما لحقها من أخطار، لذلك نراه يتساءل عنه في الجزائر، بين المثقف الكاتب، أو الحامل لمشروع، أو المتفلسف في شؤون الناس والحياة، وهو حاضر بكتابته ولكنه غائب بفعاليته، وحاجة الجزائر إلى المثقف، الذي هو في رأيه (القائد وليس المثقف المنتج فقط. ويحضرني مثالان في الجزائر هما ابن باديس ومالك بن نبي. فهل عندنا اليوم واحد من هذين الرجلين؟ (11).

ولمثل هذا فقد لاقت كتاباته و أبحاثه استقطاب الكثير من الباحثين و المؤرخين و الأدباء لقول : الدكتور أحمد زغب حين قال:" إن الدكتور أبو القاسم سعد الله كان بمثابة ابن بطوطة عصره بالنظر إلى ترحاله بحثا عن الوثائق في الوطن و خارجه، و من أجل كتابة تاريخ الجزائر " (12)، و كذلك قالت الدكتورة فوزية محمد بريون :" فقد كان رجلا مفكرا موسوعيا ن باحثا و مؤرخا و مثقفا رفيع الطراز، قضى في خزائن المعرفة

سواد شبابه و بياض شيخوخته، لم يفارق القلم يمناه .....ذلك هو فسيلته التي أراد أن يسقي بمدادها تربة الفكر قبل أن يلاقي ربه" (13).

و قد فرق الدكتور من خلال كتاباته المتعددة بين ثلاث مناهج في التاريخ:

- ما هو رسميا و تكتبه الحكومات والأنظمة والأحزاب بوجهة نظر محددة و إيديولوجيات مسبقة.
- و ما هو شعبيا تحفظه الذاكرة الشعبية و يسرده الرواة.
- و ما هو علميا أكاديميا و هذا النوع أسس له الفقيد حيث يرتبط بما هو مكتوب من المصادر والمراجع وما جمع في الأرشيف، وما عدا ذلك قد تكون اجتهادات و حكايات، فالتاريخ علم قائم بذاته له منهجه وأسسه وضوابطه.

هذا و قد أسس أبو القاسم مدرسة تاريخية جزائرية دون أن ينسب تأسيسها لنفسه، بل قال أنه واصل مسيرة من سبقوه قدما، وصنف الراحل الأمم إلى ثلاث:

- أمة تصنع التاريخ .
- وأمة تكتبه .
- وأخرى تقرأه ويقول "..نحن صنعنا التاريخ ولم نكتبه أو نقراه"، وقال أيضا "..أنّ الشعب الجزائري لا يكتب لأنه يخاف من التاريخ"، متعجبا لهذا الشعب الذي يطرد الاستعمار الفرنسي ويفشل في كتابة تاريخه، ويتوقف على نظرية "الجزائريون مولعون بكتابة التاريخ من الرواية الفرنسية.." (14)

أنّ سعد الله المفكر هو نتاج المدرسة الوطنية الجزائرية التي تأسست بكامل أطرها بعد الاستقلال مواجهة للمدرسة الفرنسية التي كان فيها الصراع بين إيديولوجيتين فرنسية وعربية إسلامية، على العلم بأن المرحلة التي التحق فيها سعد الله أستاذا بالجامعة الجزائرية تميزت بنقص واضح في الإطارات الوطنية، بعد 13 عقدا من الاستعمار، وهو المعطى الذي جعل ظلال المدرسة الفرنسية في التاريخ تهيمن على نخبة المشتغلين بهذا العلم.

ويرى الدكتور أبو القاسم سعد الله أن تاريخ الثورة يمكن أن تتناوله الأقلام، حسب الاختصاصات: (... مثلا يمكن للمؤرخين أن يتناولوا جوانب من التاريخ العسكري والدبلوماسي والسياسي. ويمكن لعلماء الاجتماع والاقتصاد أن يتناولوا جوانب من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للثورة ممثلا في التموين والمساعدات والصحة والسجون

والمحتشدات والفئات الاجتماعية التي التحقت بالثورة وعلاقاتها بالاقتصاد والزراعة والتعليم والقضاء. كما يمكن للأدباء أن يتناولوا جوانب منها أيضا، كالإنتاج الثقافي عندئذ والأدب الشعبي الذي أنتجه الناس، وتخليد المواقف والرموز في أشكال أدبية كالقصة والرواية.) (15)

كما يرى الفرز في الكتابة، بين ما هو ضروري لكتابته آنيا، وآخر يمكن تأجيله لعدة اعتبارات ذاتية عند صناع الحدث، فالبعد الزمني في الكتابة لا بد من تقديره:« ولكن تاريخ الثورة لا يحتم الآن الكتابة عن كل شيء جرى فيها لسببين اثنين: الأول أن الوثائق غير متوفرة بكل يجعل الأحكام تصدر عن موضوعية ونزاهة "ولا يمكن كتابة الحادثة التاريخية بصنف واحد من الوثائق"، والثاني أن البعد الزمني ضروري لبعض الأحداث لتأثيرها على الأحياء وحياة الناس في الوطن. فليس كل ما جرى في الثورة من قرارات ومحاكمات ومواقف يمكن نشرها اليوم».

و يقول كذلك أن منهجية كتابة تاريخ الثورة قد تكتب بالطرق الثلاثة التي ذكرها في عدة مناسبات أخرى وهي:

1- الطريقة الرسمية: وذلك بتبني الدولة لكتابة هذا التاريخ والإشراف عليه وتوجيهه وتوفير الوثائق له ونشره بعد كتابته. ومن الممكن الشروع في ذلك من الآن.

2 - الطريقة الشعبية: وذلك بتولي جميع الكتاب، سواء كانوا صحفيين، أو أدباء، أو سياسيين، أو هواة تاريخ، والإسهام في عملية الكتابة، لأن التاريخ ليس ملكا للمؤرخين الاختصاصيين فقط، فللأقلام المذكورة دور كبير في جعل التاريخ في متناول الجميع.

3-الطريقة العلمية: واعني بذلك تولي المؤرخين الاختصاصيين في أقسام التاريخ بالجامعات الجزائرية كتابة تاريخ الثورة حسب المصادر المتوفرة وطبقا للوثائق. وهذا في نظري ما يزال لم يحن وقته. كما أن الوثائق ما تزال غير متوفرة. فإذا تناول احد الباحثين موضوعاً وتوصل فيه إلى نتائج حساسة، فمن الممكن حجب هذه النتائج في الجامعة إذا كان نشرها يضر بالآخرين أو بالمصلحة العامة.) (16).

وهو يرى أن هناك منهجا واحدا لكتابة التاريخ، وهو المنهج العلمي، الذي يعتمد على فيه المؤرخ على كل الأدوات التي توفرت له، والاطلاع على المواقف، والنظريات، والمدارس ، (... و لا شك أن الثورة الجزائرية، باعتبارها حركة جماهيرية، في حاجة إلى هذا المؤرخ المتشبع بنظريات وأحداث العصر ومسيطرا على مادته وأدواته) (17)

وقد تخوف كثيرا ما يتخوف أن تصبح - الكتابات الفرنسية - مرجعا مهما وأساسيا في تاريخ الثورة لقوله : « أن ما نخشاه حقاً أن تصبح"الأدبيات" الفرنسية -كما أطلقت عليها- هي المرجع الوحيد للجيل الحاضر من الجزائريين أنفسهم عن تاريخ ثورتهم، هذا من جهة ومن جهة أخرى تصبح هي المرجع أيضا لغير الجزائريين الذين يرقبون في التعرف على مسيرة الثورة الجزائرية. وهكذا تصبح الكلمة الفرنسية هي الفيصل في تاريخ الجزائر كله، ماضيه ومعاصره -تماما كما كانت كتابة(قزال) هي الفيصل في التاريخ القديم وكتابة (قوتييه) هي الفيصل التاريخ الإسلامي، وكتابة(قرامون) هي الفيصل في التاريخ العثماني، وكتابة(جوليان) هي الفيصل في التاريخ المعاصر، ألا ينذر ذلك بخطر كبير» (18).

و حول رأيه حول الكتابات الفرنسية قال: « إن الفرنسيين يكتبون، أولا باعتبارهم طرفا في القضية، وثانيا باعتبارهم في موقع القوة، لأن الحرب جرت خارج فرنسا(في مستعمرة)، فهي لا تمس كل القطاعات الاجتماعية والسياسية عندهم ولكن جزءًا منها فقط، رغم أن الثورة الجزائرية قد مست فرنسا في الصميم...» (19).

3- النظرة النقدية للدكتور أبو القاسم سعد الله لما كتب عن تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر.

وقد أسهم المفكر و المؤرخ سعد الله كثيرا في تبرءة الأمير عبد القادر حينما قال حوله كثير من الباحثين و المفكرين و السياسيين و العسكريين و لاسيما ممن يكرهون شخصه و فكره و الذين يستكثرون عليه وطنيته (20).

أنه عضو في الحركة الماسونية العالمية ذات الإتجاه الصهيوني، فهل كان على صلة بهذه الدوائر و هو الذي معروف عنه ورعه و فقهه و لغته ووطنيته و تحديّه لإرادة الخنوع، و الواقع أنه هناك مؤامرة على الأمير بتشويه صورته؟ وكان « الكولونيل هنري تشرشل»(21) وزير المستعمرات البريطاني السابق هو أول من ادّعى أن الأمير انخرط في أوكار الماسونية في كتابه حول حياة الأمير عبد القادر من دون أن يقدم أي دليل سوى رغبته في خدمة محافل الجمعية الماسونية في الجزائر، ولم تقتصر جهود «الماسونيين» على كلام محرف من «تشرشل»، بل عمدوا إلى تزوير رسائل نسبوها إلى الأمير، وادعوا أنها بخط يده، ولكن خبراء الخطوط أثبتوا بطرق علمية أن هذه الرسائل لم تكتب بخط الأمير، وأن الأسلوب ليس أسلوبه، وسبق للأميرة «بديعة» حفيدة الأمير أن أكدت

أن جدها لم ينتسب في حياته إلى أوكار الماسونية، و أن جدها لم ينتسب في حياته إلى أوكار الماسونية .

وكذلك ذهب الباحث عبد الجليل التميمي حول مسألة انضمام الأمير عبد القادر للمؤسسة الماسونية العالمية استنادا إلى وثائق نادرة عثر عليها في كثير من المؤسسات الأرشيفية (22) و كذلك من خلال دراسة مزاعم و ادعاءات المؤرخ كزافي ياكونو (Xavier yaccono) على أن الأمير عبد القادر يكون قد انضم حقيقة إلى المؤسسة الماسونية العالمية و يضيف أن الأمير لم يتصل شخصيا أو مباشرة بهذا الجهاز الماسوني و لكنه أرسل فيها برقية إلى الرفاق الماسونيين " أن الله واحد و أن الأخوة في الإنسانية أمر يحبه الله رغم الإختلاف الإديولوجي و الديني " (23)

وكذلك فعل الدكتور سعد الله حينما برأ الأمير خالد من قضية الإندماج و أنه دعى لمجرد المساواة بين الفرنسيين و الجزائريين في المجالس المنتخبة و أنه زعيم وطني وقف ندا للند مع السلطات الفرنسية (24).

- خاتمة

أتذكر عندما كنت طالبا عند الفقيد وحول كيفية تقديمه لدرسه وكيفية تعامله مع طلبته، يقول أنه كان يدرك أنّ رسالة الأستاذ الجامعي هي تثقيف للعقل، وتنمية لملكة البحث العلمي والقراءة والتحكم في المنهج ووسائل البحث، فقد اعتمد على مبدأ التحاور والتشاور، كما كان يحرص على الطلبة أن يكونوا فعالين في الحصة، أي يشاركون ويدلون بمعلوماتهم ويطرحون آرائهم و يثمّن مجهوداتهم، فهو يؤمن بالرسالة التي يقوم بها طالب باحث لا طالب متلقي فقط.

وعرف سعد الله بموضوعية كتاباته ودقتها ومنهجها العلمي. و بذلك يعتبر المرحوم أبو القاسم سعد الله من أبرز المثقفين و المجاهدين الجزائريين بقلمه و فكره و كيف و هو الذي عاصر الثورة عن قرب، واحتك بقادتها، وواكب بعض النشاطات السياسية والإعلامية فيها، عندما كان طالبا، و ما يثبت ذلك أنه كان في حيرة من أمره وطُرح الإشكال لديه في مواصلة الدراسة أو الانضمام للثورة بكل ثقله، ولكنه اهتدى إلى الاختيار الأول، لأنه رآه الاختيار الأنفع للثورة والجزائر.

و قد حافظ على الهوية الجزائرية أثناء الثورة التحريرية من خلال مقالاته، ويقول أنه كان واحد من الذين يفهمون على أنّ التاريخ دراسة الماضي لمعرفة الحاضر و

استشراف المستقبل.لذلك شبه "سعد الله" بهيرودوت التاريخ، وأب الحركة الوطنية في بعدها التاريخي، و ما يمكن لنا قوله هنا بكل بساطة إن الدكتور سعد الله لم يكون مؤرخا رسميا بل وجد ليكون مؤرخا أكاديميا و كتاباته الكثيرة تشهد له بذلك.

كما أنني أخلص من خلال هذه الدراسة إلى أن الدكتور الراحل كان قامة من قامات العلماء الأجلاء و بل من منظومة من المعارف (السياسية و الفلسفية و التاريخية و كذا الأدبية)، فقد أراد بكتاباته التاريخية صيانة المجتمع الجزائري و ثقافته بتأصيلاته الفكرية و المنهجية لأنه لم يكن يقف عند ظواهر الأحداث بل تغلغل على جذورها ليحللها و يفصلها، و منه نقول بكل بساطة ان الراحل لم يكن مؤرخا رسميا بقدر ما كان أكاديميا .

و لا بد حينئذ من توسيع دائرة الاهتمام بكتاباته و أفكاره حتى نكون أوفياء لستشرافاته و طموحاته.

المصادر والمراجع

1- إبراهيم مياسي، ذكريات..مع مؤرخ الأجيال: أبو القاسم سعد الله، الحوار المتمدن، بتاريخ 2008.

2- « هو إنسان بضاعته أفكار، سواء أكانت تلك الأفكار من إبداعه هو،أم كانت منقولة عن سواه،ولكنه آمن بها إيمانا أقنعه بأن يحياها، ثم لا يقتصر على أن يحياها هو بشخصه، يل يريد أن يقنع بها الآخرين ليحيوها معه، والأرجح أن تكون هذه الأفكار من الصنف الذي يغير الناس نحو ما يظن أنه الأفضل ،على تفاوت في ذلك بين فكرة وفكرة» أنظر: زكي نجيب محمود،هموم المثقفين، دار الشروق، مصر، 1967، ص11.

3- يقول الأستاذ سعد الله عن نفسه.

4- يقول الدكتور الراحل عن نفسه أنه رغم مشاركته في الحياة الطلابية بتونس غير انه ينفي لم يكون طالبا "متسيسا" مثل بعض الطلاب و ظل كذلك إلى سنة 1955 أنظر: أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص 130.

5- أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية، دار المعرفة، الجزائر، 2011، ص 44-45 .

6- نفسه، ص 50.

7- على اعتبار أنه كانت أقسام التاريخ واحدة تتركز أساسا بالجزائر العاصمة ووهران و قسنطينة، و لعل أغلب ممن درسوا أنذاك تتخصصوا في التاريخ تنقلوا في كثير من المرات إلى العاصمة حيث تلقوا هناك تعليمهم على يد الفقيد سعد الله .

8- وتظهر الروح الثورية عندما دبجت أنامله مقالا بعنوان"أمة المجد في الميدان" كذلك قصيدة "غيوم" التي أشار فيها إلى الحرية والاستقلال، والثورة مازالت لم تندلع . ونشرت في العدد 264 من البصائر في 26 مارس 1954.

9- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي بيروت، لبنان ،ج1-9، سنة 1998.

10-أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي ،بيروت، لبنان، سنة 1990.

11-أبو القاسم سعد الله، حوارات، دار المعرفة، الجزائر، 2011 ص31.

12-صابر بليدي، مقال في صحيفة العرب، بتاريخ 22 ديسمبر 2013، العدد: 9417

13-مقال بعنوان، أبو القاسم سعد الله في ذمة الله، في ليبيا المستقبل (منبر إعلامي مستقل تأسس في جوان 2003 لندن) – بتاريخ 06 جانفي 2014م، العدد : 42916-www.libya al_mostakbal.org/news/clicked

14-فقد كان يقول لنا عندما كنا طلبة عنده ما بين 1989-1991 أن الكتابة في الجزائر معجزة، لما كانت تنطوي عليه من صراعات اديولوجية وكذا في جمع المادة العلمية من مظانها.

15-حوارات، مرجع سابق، ص 157.

16-نفسه، ص 39. أجري الحوار في سنة 1988

17-أبحاث وآراء،ج2، ص 236-237.

18-أبو القاسم سعد الله، قضايا شائكة، دار المعرفة، الجزائر،2011،، ص 146.

19-نفسه، ص 145.

20-خليفة لاغة، الأمير عبدالقادر الجزائري تعرض لحملة تشويه مسعورة من قوى الاستعمار، المجتمع الكويتي، مجلة إسلامية أسبوعية تأسست سنة 1390هـ الموافق ل 1970م، تصدر عن جمعية الإصلاح الإجتماعي، العدد 1860 : 18رجب 1430 هـ 2009 /7 / 11 م، ص 44،45.

21-هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعد الله، الدار التونسية للنشر، تونس، ماي 1974، ص 294- 295.

22-Archives du forgien office à Londres
- Archives de la présidence du conseil, baskelat Arsivi d'Istanbul.
- Archives d'outre mer a aix-en Provence.
- centre univ de l'université de durham.

23- عبد الجليل التميمي، مجلة الدراسات التاريخية المغاربية ن السنة السادسة و العشرون، عدد: 135، جويلية 2009، منشورات التميمي للبحث العلمي و المعلومات، تونس، ص 72-.73

24- و حول النص الكامل حول تبرئة الأمير خالد مما نسب إليه أنظر: بن الشيخ حكيم، الأمير خالد، دار هومة، الجزائر، 2013.